٤٠ـ مع العبد الصالح

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

أفاض علماؤنا في العبد الصالح: هل كان نبيا؟ والذى نقف عنده أنه كان عبدا صالحا، حدد الحديث الشريف اسمه، وإن لم يعرض لنبوته. وتحدثوا عن مفهوم العلم اللدنى. يقول الإمام الفخر الرازى في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾: يفيد أن تلك العلوم حصلت عنده، من عند الله، من غير واسطة. والصوفية سموا العلوم الحاصلة بطريق المكاشفات العلوم اللدنية. وللشيخ أبى حامد الغزالى رسالة ((فى إثبات العلوم اللدنية)) ثم أخذ في شرح أقسام العلوم، وكيف أن النفس إذا صفت تهيأت لاستقبال الأنوار الإلهية، وفاضت عليها من عالم الغيب تلك الأنوار.. فهذا تنبيه قليل على هذا المأخذ. ووراءه أسرار لا يمكن ذكرها في هذا الكتاب، (مفاتح الغيب ١١: ١٥٠- ١٥١).

ولقد كان هذا بابا واسعا دخل به في الإسلام ما ليس منه وتسربت ممارسات وأفكار هندوكية وبوذية ويونانية وفارسية وابتدعت بعض الفرق الإسلامية طقوسا في ذكر الله، ما أنزل الله بها من سلطان.. حتى وصل بعضها إلى الرقص الإيقاعى على النغمات الموسيقية باسم الإسلام، ودخلت خيوط من الفكر غير الإسلامى في هذا النسيج الصافى، وأصبح ماتستريح إليه نفس شيخ من الشيوخ، أو رأس طريق من الطرق، يرى كأنما هدى إليه عن طريق المكاشفة والفيض الإلهى..

قصة موسى والخضر محددة الأبعاد: في أن هذا العبد من عباد الله الصالحين. وأن الله أرسل إليه موسى ليتعلم علما، علمه الله إياه، وليعود موسى إلى قومه مستفيدا من هذا العلم. والله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى أخبرنا أن هذا العبد الصالح تصرف بأمر الله.. أما كيف؟ فهذا من الغيب الذى حجبه الله عنا

فمعرفتنا ـ في هذه الحدود ـ مرجعها القرآن الكريم؟ والحديث الشريف. وليس لنا ـ وما يكون لنا ـ أن نبحث وراء ذلك فالوحى الإلهى المنزل على المصطفى ﷺ انقطع عنا بانتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى. وترك الله تعالى لنا كتابه، وبيان الكتاب في سنة رسوله، والعقل الذى نفكر به، وليس وراء ذلك مصدر.

ونحن ـ كمسلمين ـ لا نملك أن نحكم على أي قول إلا في الحدود الأساسية التى بينها القرآن ووضحتها السنة. هذه هى المقاييس الأساسية.. فإذا جاء أي عالم، مهما تكن منزلته، وقال إننى رأيت في المنام كذا، أو ألقى الله في روعى كذا.. عرضنا أمره على كتاب الله وسنة رسوله. فما وافق الكتاب أخذناه، وما عارض الكتاب رفضناه، وما اختلفنا فيه رددناه إلى أهل الذكر ليعلمه الذين يستنبطونه، ويستطيعون تقييمه.. وفى هذا نظل بالكتاب والسنة مستمسكين، وفى نفس الوقت، نقابل مشكلات الحياة بالاجتهاد الذى لا يصدم نصا، مقدرين تغير الظروف والأيام، وتغير الأحكام الاجتهادية مع مسار الحياة..

هذه أمور فصل القول فيها علماء اتخذوا الكتاب والسنة نبراسا، واستطاعوا أن يعيشوا دينهم وعصرهم.

إن العالم الإسلامى الآن يلقى من المشكلات والتحديات الحضارية ما يفرض علينا مقاتلته والتغلب عليه، وحشد الطاقات الروحية، والمادية للانتصار في معركة الحياة.. ومن هذه الزاوية. تأتي النظرة إلى القصص القرآنى، وكيف يمكن أن يدعم هذه الطاقات ويوجه الشباب إلى الإنتاج والإبداع وموازاة الفكر المعاصر، ثم التفوق فيه.

وإن أبرز ما تميز به جيل الصحابة مع الرسول ﷺ أن أهدافهم كانت واضحة: استطاع المصطفى ﷺ أن يكون الفرد المسلم والمجتمع المسلم. واستطاع الأفراد كأفراد وكمجتمع، أن يحملوا أمانة الإسلام اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا، وأن يحموا قاعدة الإسلام في الداخل ويدفعوا عنها في الخارج، وينشروا الإسلام، وأن تكون من جهودهم حضارة لها وجودها ومكانتها وإبداعها.

كيف استطاع الإسلام أن يفجر هذه الطاقات؟ وأن يجمع موجاتها في تيار منتظم كأنه نهر الخير، ينشر الخصب والنماء على ضفافه، ويروى ساكنيه، ويبعث بأبنائه وثماره إلى آفاق بعيدة؟ هذه هى القضية الرئيسية..

وفى قصة موسى والخضر جوانب من أدب طلب العلم، والتربية النفسية والفكرية.. وهو أدب يمثل ـ والله أعلم ـ العبر الكبرى في هذه القصة.. ومنها يكون ارتباط الشباب بها، وجدوى دراستها..

والآن فلنصحب ـ موسى عليه السلام ـ وهو من أولى العزم من الرسل. موسى كليم الله الذي أجرى الله له ـ بأمره ـ من المعجزات الكونية ما تحفظ جميعا.. وهو في جلال الرسالة وفيض ما أعطاه يبعثه الله تعالى ليتعلم من إنسان لا نعلم من أمره، ولا يعلم هو إلا ما أخبره الله به، وما أخبرنا به في كتابه، وعلى لسان رسوله.. فما أبرز آداب قصة هذا التعلم، وهذه الرحلة العملية؟ كأنها في اصطلاحنا المعاصر ـ تجربة ميدانية ـ أو دراسة ميدانية بين موسى وهذا المعلم المجهول.. إلا من إمارات بينها الحق تبارك وتعالى.. هذا المعلم الذى ظهر من ضمير الغيب، في زمان ومكان محددين، وانتهى أمره بعد القصة.. فلا نعلم عن حياته أين كانت من قبل، ولا من بعد، ولا نعلم أين قبره، ومن قومه.. كل الذى نعرفه أن اللغة التى تكلما بها كانت لغة مشتركة، وإلا ما أمكن التفاهم.. كذلك مع أهل القرية التى استطعما أهلها..

١- أول هذه الدروس تلطف طلب العلم مع العالم مهما تكن الفروق بينهما، ومهما أحس المتعلم من كرامة الله السابقة له. فمن هذه الكرامة حسن الطلب ومعاملة الناس. ويبدو هذا في قوله: ((هل اتبعك)) فجعل نفسه تابعا للعبد الصالح.

٢- ومن دروس التلطف الاستئذان في هذه التبعية وهذا أيضا في قوله: ((هل أتبعك)).

٣- إظهار الرغبة في الاستفادة والتعلم. وهذا قوله: ((على أن تعلمني))

٤- والإعلاء من شأن المعلم وذلك في قوله: ((مما علمت)) فما ستقوله لى هو بعض علمك.

٥- تحديد الهدف من العلاقة، فهي ليست مجرد رحلة متعة أو حب استطلاع، وإنما هي مشارطة: اتباع وتلطف من أجل العلم.

٦- رد العلم إلى الله تعالى، فهو ـ سبحانه ـ صاحب الفضل عليهما جميعا. وهو سبحانه الذي ساق موسى إلى الخضر. وأوحى إلى الخضر استقباله وتعليمه. وذلك قوله: ((مما علمت)).

٧- في قوله: ((رشدا)) طلب الهداية والرشاد.. فمهما يكن الإنسان في وضع، ففوقه من هو أفضل. ومهما يكن في علم،فالناس جميعا قال الله فيهم: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾.

٨- في قوله: ﴿ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾ إشارة إلى وجوب حركة العلم. فكما علمك الله، جئت إليك لأتعلم. والعلم كالنور والماء لا يحبس. هذا فضل من الله عليك، فعلمني مما علمت، وسأعود إلى قومي لأعلمهم كما تعلمت.

٩- وأيضًا في قوله: ﴿ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾ إشعار بأن الاتباع ليس بين فرد وفرد، مهما تكن مكانة كل منهما، وإنما مرد هذا إلى الله.. فالعالم على طريق الله، والمتعلم في اتباع العالم، إنما يتبع طريق الله. وليس في الأمر خضوع فرد لفرد.. ولنستحضر هنا الدقة في قول ملكة سبأ: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (النمل: ٤٤). الإسلام مع سليمان وهذه صحبة الحق. والإسلام منها ومن سليمان لله رب العالمين، وهذا هو طريق الحق.

١٠- ولا ينفى هذا أن المتعلم عليه أن يحسن التلقى من المعلم، فلا ينازعه الأمر، ولا يسابقه بالاعتراض. فإن الخضر وعد موسى بالشرح والتفسير في الوقت الذى يراه.. والذى كان من موسى المبادرة بالأسئلة قبل أن يحين وقت الحوار والشرح. فالأمر ليس اتباعًا مطلقًا، ولا تسليمًا بغير دليل، وإنما هو نظام في الدراسة.

١١- ويبدو جلال العلم ومكانته في أن الرحلة كانت من أجل العلم لا طلبًا لجاه أو عرض من أعراض الدنيا.

١٢- كما يبدو جلال العلم في موقف المعلم والأسلوب العملى الذى اتبعه والمراحل التى مرت بها التجربة مع نبي من أولى العزم..

٤١- في السفينة

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾

هذا هو الدرس الأول أو التجربة الأولى في رحلة العلم مع موسى والخضر..

ونود فيها أن نربط بينها وما سبقها من آيات تبين سلوك المعلم، بعد أن عرضنا سلوك المتعلم..

لقد وصف الله تعالى الخضر في الآيات السابقة بقوله: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ فهذه صفات ثلاث:

الأولى: العبودية. وهى أكرم ما يصف الله به إنسانا: نبيا كان أم غير نبى..

وصف الله تعالى بها المصطفى ﷺ في ليلة الإسراء فقال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ (الإسراء: ١) ووصفه بها في المعراج بقوله: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ (النجم:١٠) ووصفه بالعبودية وهو يحمل مسئولية الدعوة إلى الله: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ (الجن: ١٩) ووصفه بها وهو يتحدى الكفار، ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ ﴾ (البقرة:٢٣). وبالعبودية كرمه وبالقرآن معا في قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ (الكهف:١).

كما وصف بها عباده الأخيار في قوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ (الفرقان: ٦٣).

وهذا العبد الصالح ليس متفردا بهذه الصفة، ولكنه كما وصفته الآية الكريمة: ﴿ عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾. فعلى شاكلته غيره وعطاء الله لا ينفذ، ورحمته

وسعت كل شئ.. فلا تظنوا الخضر بدعا من الناس غير مسبوق ولا ملحوق.. وفى هذا ما يورث النفس للّه تواضعا، فمهما أنعم اللّه على إنسان فليذكر أن للّه عبادا غيره، وأن فضل اللّه ورحمته قريب من المحسنين.

وفى هذا نجد مقابلة كريمة بين ما جاء في بعض الأحاديث من إحساس موسى بمكانته، وبين وضعه في مكانة المتعلم ليرتفع بها قدره عن طريق المزيد من التواضع للّه وعباده، بأسلوب عملى، لا تقتصر على التلقى، وإنما يمتد إلى الممارسة، التى تتنوع فيها الموقف مع وحدة الهدف، وتتضح فيها ـ أكثر فأكثر ـ شخصية المعلم وأسلوبه في معالجة القضايا التى بين يديه، وهو اتضاح تنعكس آثاره على المتعلم..

الثانية: الرحمة. وذلك قوله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾.. وتنكير الرحمة في الآية يفيد شمولها، فهى كالنور يشع في كل اتجاه. وهذه الرحمة فيض من اللّه وفضل.. فهى من عند اللّه.. والرحمة في ذاتها خير. وصدورها فضلا من اللّه خير. هل نذكر معها كلمة مريم ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (آل عمران: ٣٧) وكيف تحس في تكرر لفظ ((عند)) نوعًا من الإيناس، والإقرار بفضل اللّه. زكريا يجد عندها الرزق. ومريم تقول: ((هو من عند اللّه)).

كذلك مع الخضر، آتاه اللّه الرحمة من عنده ـ سبحانه وتعالى ـ فهو يترفق بمن حوله. سنرى هذا الترفق مع موسى.. ترفقًا يبدو في قوله الأول: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾.. ويلتمس له العذر فيعقب على هذا بقوله: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ ؟ وهو بهذا يبدأ بالمستوى العادى للإنسان: أن يعجل بالسؤال ليستفيد إذا أشكل عليه الأمر. وليس في هذا أي عيب. ولكن في هذا الموقف يضاف إلى الرغبة في العلم الالتزام بنظام الصحبة أو نظام التعلم. هذا أمر نفسى مضاف إلى الأمر العقلى. قل: إنه أمر سلوكى مضاف إلى مجرد المعرفة. لا يختلف ـ من حيث طبيعته ـ عن نظام إدارة الجلسات وتحديد أوقات الأسئلة والحوار..

ونحن نحس فيما سبق من بعض تصرفات موسى ـ عليه السلام ـ جانبًا من الحدة والاندفاع، والمبادرة إلى تصرف يرجع عنه، بعد أن يهدأ..

وفى مراحل تكوينه اللاحقة مزيد من الدربة على ضبط النفس.. وتجربته مع الخضر إحدى هذه المراحل.

ولقد أدرك موسى ما يرمى إليه الخضر، وهو أنه محتاج إلى مزيد من الصبر والأناة. فكان قوله: ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴾. وكما جاء قول الخضر ذا شقين هما ﴿ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴾ جاءت إجابة موسى في شقين أيضًا الأول الوعد بالصبر والثانى الطاعة في القول والعمل.

وعندما وعد موسى بهذين جاء قول الخضر محددًا ما اتفقا عليه.. قال: ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴾

ولا يحمل هذا الاتفاق وعدًا صريحًا من الخضر بأن يخبر موسى عن تفسير ما يرى. وإنما عليه الصحبة والمشاهدة والمشاركة والطاعة، فإذا كان من أمر الله للخضر أن يخبر موسى بتفسير ما يشاهد، أخبره به وقتما يشاء، وإذا سكت عنه، فهو لا يفعل شيئا إلا بأمر الله.. ولنذكر أن القصة كلها تتحرك ابتداء بوحى من الله تعالى.

كل هذه آفاق من الرحمة في التعامل.. كانت في مطلع التجربة.

الصفة الثالثة: العلم. وذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴾

وأنت إذا نظرت إلى المعلم المأمول وجدت هذه الركائز الثلاث أساس حياته، إيمان بالله وعبودية له، فهذا هو الخيط الذى يربطه بربه، رحمة يشيعها فيمن حوله ويعامل بها من حوله، وهذا هو الخيط الذى يربطه بالناس، علم يعيش به وينفع الناس به، وهذا هو الخيط الذى يربطه بالمعرفة، ثم هذه الخيوط الثلاثة في تماسكها ـ كأنها الحبل المجدول ـ يرتفع بها الفرد كما يرتفع بها المجتمع وتتبادل التأثير، بل ويتكامل تأثيرها على الحياة والأحياء، ويبدو أثرها في الدنيا والآخرة.

والله تعالى وصف علمنا كله فقال: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٨٥).

ووصف علمه ـ سبحانه ـ وصفًا بقربه من أذهاننا فقال:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ (الكهف: ١٠٩)

وقال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان: ٢٧).

فعند موسى من العلم نصيب، وعند الخضر من العلم نصيب، والإحاطة المطلقة من صفات الحق ـ جل وعلا ـ أما نحن البشر، فلنا علم الوحى الذى تلقاه المرسلون وحفظه لنا القرآن الكريم، وعلم من تجارب الأمم قبلنا وحولنا، وعلم نحاول معرفته في الأنفس والآفاق، أي في الإنسان والكون وعلم ننظم به، هذا كله في إطارات تتقدم بها الحياة،وتصعد إلى المزيد من الإبداع، في جو من التواضع وحب الناس..

وانطلق موسى والخضر، وركبا في السفينة، فخرقها. أين كان الخرق؟ ما حجمه؟ لماذا لم يذكر القرآن أن أصحاب السفينة اعترضوا، أو كان لهم موقف، كما سنرى في أهل القرية في المرحلة الثالثة؟ لقد بادر موسى: بوصف ما حدث بأنه شئ إمر.. شئ كبير، بعد أن سارع باستنكار: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾؟ كان من المنتظر أن يعترض أصحاب السفينة وأنت تراهم أمامك يا موسى مساكين، فقال الخضر: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ ؟، كل ما فعله الخضر أن ذكره بما كان بينهما. لم يقل له: أنت وعدت بكذا وكذا.. بالصبر والطاعة. ولكن ذكره بأول قوله: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾

وبادر موسى إلى الاعتذار..

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ والإجابة من شقين: أولهما واضح: لا تؤاخذنى بما نسيت، ولكن ما المقصود: ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ ولم يكن من الخضر إلا التيسير.

هنا نجد جانبًا ممّا يعانيه موسى من الرغبة الجادة في السيطرة على نفسه، وهى رغبة تكلفه بعض العسر، ولكنه جزء من ثمن العلم والتعلم.

فطريق العلم فيه عسر وفيه إرهاق. ولكن ليذكر أبناؤنا، أنه طريق الأنبياء والصالحين.

٤٢- الغلام والجدار

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾

هذه هى المرحلة الثانية من لقاء موسى والخضر.. كانت الأولى في ظاهرها إتلافا لمتاع هو ملك للغير، ودون إذن منه ودون ظهور الحكمة في ذلك. وهو إتلاف كان من الممكن أن يؤدى إلى إغراق.. ولكن الذي بدا هو إتلاف جزء من السفينة. وهذا الجزء يمكن إصلاحه فيما بعد.

أما هذه المرحلة فالإتلاف فيها لا يمكن إصلاحه. إنه قتل نفس. وفرق كبير بين خرق السفينة وقتل الغلام.

ولفظ الغلام قد يتناول الشاب البالغ كما يتناول الصبى الصغير. وليس في القرآن تفصيل كيف لقياه، هل كان مع جمع من الصبيان أو كان منفردًا؟ وهل كان مسلمًا أو كان كافرًا؟.

وقوله تعالى: (بغير نفس) يدل على عدم وضوح السبب الداعى إلى ذلك، أمام موسى على الأقل فما ظهر من هذه النفس كفر، وما ظهر منها عدوان على نفس أخرى يستوجب القصاص، وإتلاف النفس في هذه المرحلة مما لا يمكن إصلاحه، من أجل ذلك كان قول موسى: ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ واضح أن هاتين

التجربتين لا تبعدان كثيرًا عما سبق أن لقيه موسى في حياته، وكان يستطيع الربط، لو أنه أطال التأمل ولم يبادر بالتساؤل أو الاعتراض.

لقد ألقته أمه وهو رضيع في اليم. سفينة تابوت صغير، لا شراع ولا سكان ولا ربان، إلا رعاية الله فكأنه سفينة نوح باسم الله مجريها ومرساها ورحمة الله تدرك الرضيع كما تدرك الجنين والشيخ الكبير.. وأيهما أقرب إلى النجاة: ملاحون مدربون وركاب كبار أم رضيع في تابوت يحركه تيار الماء؟ لقد كانت رحمة الله قريبة منهم جميعًا، وفى قدره سبحانه أن تنجو السفينة وأن ينجو الرضيع. والأمر كله إيمان وصبر وتصديق بوعد الله.

وكذلك قصة الغلام الذى قتله الخضر، إنها ليست بعيدة عن قصة الرجل الذى وكزه موسى وقضى عليه عندما استغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه، ثم أصبح في المدينة خائفا يترقب، وتآمر عليه الملأ فخرج من المدينة خائفا يترقب وتوجه تلقاء مدين.

هل كان موسى يخشى أن تتكرر التجربة ؟ وأن يتعرض وصاحبه لغضب القوم؟

وفى هدوء لم يرد الخضر عليه مفسرا، وإنما ذكره بالعهد: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ؟

وهذه الجملة تزيد عن سابقتها بكلمة (لك) كأن الخطاب موجه إلى موسى مباشرة. وزيادة المبنى في الجملة يدل على زيادة المعنى.

وتغير اتجاه الاعتذار..

لم يقل موسى هذه المرة ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ فالخضر ما آخذه وما أرهقه، إلا أن يكون مجرد التذكير مؤاخذة وإرهاقا.

واتجه موسى إلى نفسه – كأنما يريد أن يؤاخذها بما أسرعت فقال: ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾

ومرة ثانية نرى الإجابة ذات شقين: أن تتوقف المسيرة إذا سأل موسى. وقدم مبررات ذلك: قد بلغت من لدنى عذرا..

موسى هو الذى طلب الصحبة وقَبِلَ شروطها، ولكنه هو الذى حدد كيف تنتهى. وفى هذا يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: (لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا قصصهم). (جزء من حديث ابن عباس عن أبى كعب: تفسير الطبرى ١٥:٢٧٩ ط. الحلبى).

وتتأمل هنا رغبة المصطفى في الاستزادة من العلم، وتمنيه أن كان موسى صبر.. ومن قبل هذا رغبة موسى في العلم. وكيف استفاد وأفاد.. وكان الصبر - مجرد الصبر - بابًا إلى العلم. وبهذا القول من موسى لم تبق لنا مع الخضر إلا تجربة.

ولكن في حديث ابن عباس طرف آخر نقف عنده وهو تعقيب المصطفى عليه الصلاة والسلام على قول موسى: ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ﴾ قال: استحيا في الله موسى عندها (تفسير الطبرى ١٥:٢٨٧ – ٢٨٨).

وفى رواية أخرى لنفس الحديث (رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب، ولكنه قال: إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى، قد بلغت من لدنى عذرا) (نفس المرجع ١٥-٢٨٨).

ننتقل إلى قول الله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾.

وإذا كانت التجربة الأولى متعلقة بمال الآخرين، والثانية بقتل النفس، وهما - في ظاهرهما - فعل ظاهره العدوان فإن الثالثة تختلف عنهما اختلافًا أساسيًا.. فهى في ظاهرها تقديم الخير لمن لا يستحق.

وواضح من سياق الآية أن موسى وصاحبه أتيا أهل القرية، وهما في حاجة إلى الطعام، وأن أهل القرية أبوا أن يضيفوهما. وشر القرى هى التى لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه.

ولقد كان المنتظر أن يبرحاها إلى قرية أخرى، ليدركا فيها ضيافة أو طعامًا..

ولكن نظر العبد الصالح فوجد جدارًا يريد أن ينقض. جدارًا به علامات تدل على قرب سقوطه.. ولا دلالة في القرآن على الجهد الذى بذلاه لإقامة الجدار، دون أن يطلب منهما أحد ذلك، ودون أن يطلبا عليه أجرًا، قبل الإقامة أو بعدها.

وحاول موسى أن يربط بين الجهد والأجر. ولكنه عرض هذا في أسلوب من التخيير يختلف عن أسلوبه السابق الذى وصف به ما رأى، أنه شيء إمر وأنه شيء نكر، وقالها في المرتين بصيغة جازمة.

هنا قال موسى للعبد الصالح: ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ لو شئت، فالأمر لك. ولم يقل: (لاتخذنا)، كأنها إرادة مشتركة.

وهنا أعلن العبد الصالح نهاية مراحل التجربة قائلا: هذا فراق بينى وبينك.. ثم بادر فربط بها مباشرة ما يود موسى أن يعرفه قائلا: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾، ولم يقل له سأنبئك بتأويل ما رأيت، فالأحداث شاهداها معًا.. ولكن الجزء الذى كان خافيًا على موسى هو العبرة والحكمة في كل من هذه الأعمال: ما مصدرها؟ ما هدفها؟ ما علاقة أعماقها بالجزء الظاهر منها؟

ولنذكر هنا أمورًا بين يدى التأويل:

أولاً: أن الخضر كان معروف لأهل السفينة، كما جاء في حديث ابن عباس: فانطلقا يمشيان على الساحل، فعرف الخضر، فحمل بغير نول (أى أجر)..(الطبرى ١٥:٢٧٨).

ولعله كان معروفًا لأهل أرضه ولم يرد في القرآن أنهم اعترضوا على ماصنع.

ثانيًا: لا يذكر القرآن أن أحدا آخذه على قتل الغلام. الغلام كان مجهولاً لموسى والدليل قوله الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا ﴾ بينما هو معروف للعبد الصالح ، كما سيأتى فيما نستقبل من التأويل.

ثالثًا: والقرية التى لا تكرم الضيف كانت معروفة أيضًا للعبد الصالح.. بأهلها وأجيالها وطرقاتها وبيوتها. من أجل ذلك وقف عند جدار معين فيها يريد أن ينقض فأقامه..

كان تحرك العبد الصالح في أرض معلومة له وبين قوم معلومين ولأهداف معلومة.. وكل ذلك كان خافيًا على موسى حتى أخبره به العبد الصالح بأمر من ربه.

٤٣ـ ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

ونود بداية أن نؤكد في هذه الآيات أمرين أساسيين

- الأول: التأويل الذى لم يستطع موسى عليه صبرا.
- الثانى: أن العبد الصالح فعل هذا مأمورا ، ومنفذا لإرادة الله تعالى.

والتأويل لغة. هو تفسير لشىء غير واضح، وهو مشتق من الأول وهو الرجوع، كأن تحصيل المعنى شبيه بالرجوع إلى المكان بعد السير منه. (تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهربن عاشور ١٦:١.)

وسنبدأ بمشهد السفينة، فالغلام، فالجدار..

والسفينة كانت لمساكين يعملون في البحر، يرتزقون من جهدهم، ويكدحون دهرهم لتحصيل عيشهم. والمقصود من كلمة وراء في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ أنه يتعقب السفن الصالحة ليستولي عليها أو يسخرها لخدمته غصبًا وقهرًا. وليس المقصود موقعه المكانى: هل هو يسكن قبل أو بعد.

وجملة ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ متفرعة على كل من جملتى "فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ" و" وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ" ، فكان حقها التأخير عن كلتا الجملتين بحسب الظاهر. ولكنها قدمت خلافا لمقتضى الظاهر لقصد الاهتمام، والعناية بإرادة إعابة السفينة، حيث كان عملا ظاهره الإنكار، وحقيقته الصلاح، زيادة في تشويق موسى إلى علم تأويله، لأن كون السفينة لمساكين مما يزيد السامع تعجبا في الإقدام على خرقها. والمعنى: فأردت أن أعيبها وقد فعلت.. فتصرف الخضر قائم مقام تصرف المرء في ماله بإتلاف بعضه لسلامة الباقى. وهو ارتكاب أخف الضررين. وهذا أمر لم يطلع عليه إلا الخضر، فلذلك أنكره موسى (التحرير والتنوير١٦: ١٢ –١٣)

ولكن في القصة وجهًا آخر.

موسى لم يكن من أبناء هذه الأرض، التى لقى فيها العبد الصالح، ووجود حاكم، ظالم مغتصب، لم يكن مما يخفى أمره على الخضر، ولعل ظلم هذا الحاكم مما لا يخفى أيضًا على المساكين، أو لعلهم لم يعرفوا ما أصدر من أمر، باغتصاب سفينة المساكين فكان أن يسر الله تعالى لهؤلاء المساكين هذا العبد الصالح، لينقذ سفينتهم من الملك الغاصب ولذلك بأن يعيب السفينة فإذا رآها رجال الماك انصرفوا عنها..

فالتصرف كان لصالح المساكين وكانوا هم على ثقة بالعبد الصالح ولوعاب سفينتهم، لحكمة ستظهر مع ظهور رجال الملك. ويستطيع المساكين من بعد- أن يصلحوا سفينتهم، ويتابعوا الارتزاق منها.

والحكمة في هذا الأمر تبدو من وجوه:

١- أن لا يتسرع الإنسان في الحكم بمجرد رؤية جانب منه: كان من موسى المسارعة إلى الاعتراض عندما خرق العبد الصالح السفينة، والعبد الصالح

كان يدرك أطراف الأمر جميعًا: المساكين، السفينة، الملك الغصب رجال الملك الذين ينفذون أمره. موقعهم وترصدهم للسفن أو قطع الطريق عليها في مراسيها..

٢- أن الأمر لا يتعلق بفعل معزول عن صاحبه، فالذى خرق السفينة إنسان عاقل، وهو هنا في مرتبة المعلم ولقد مثل هذا أمام أصحاب السفينة، ولم يعترضوا عليه، أو لم يخبرنا القرآن أنهم اعترضوا عليه. لماذا ؟ هذا عامل الثقة في العبد الصالح وكان متوفرًا بينه وبين المساكين ولولا معرفة سابقة بينهم ما أركبوه بغير نول هو وصاحبه، ولقد أسقط موسى عامل الثقة هذا، ولم ينظر إلا إلى خرق السفينة بقصد الإغراق مع ما سبق من المساكين من فضل.

٣- أن للإنسان أن يرتكب خطأ أدنى في سبيل النجاة من خطر أكبر كالذى يهدم جدارًا لينقذ من وراءه أو يكتم حريقًا أو يطفئه منعًا من احتراق الدار مضحيًا بجانب منه.

٤- أنه كلما اتسعت دائرة المعرفة، كلما كان التصرف أقرب إلى الصواب. والمعرفة في أبعادها المكانية والزمانية والموضوعية وفى علاقاتها: أنوار تضئ الطريق إلى الاختيار الأنسب.

ننتقل بعد هذا إلى موضوع الغلام..

ولقد تكلم المفسرون عن هذا الغلام..وأنه لو طال عمره لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا..(نفس المرجع ١٦: ١٣، أحد الأقوال التى أوردها الفخر الرازى١١: ١٦٢).

ومما ذكره الفخر الرازى (١١: ١٦٢): قيل: إن ذلك الغلام كان بالغا وكان يقطع الطريق ويقدم على الأفعال المنكرة، وكان أبواه يحتاجان إلى دفع شر الناس عنه، والتعصب له، وتكذيب من يرميه بشئ من المنكرات، وكان يصير ذلك سببا لوقوعهما في الفسق، وربما أدى ذلك الفسق إلى الكفر. أهـ.

ولعل الأقرب إلى العقل، أن الغلام قد ارتكب ما يوجب القتل، وأنه قد نجا من القصاص بسبب أو لآخر وأن الله – سبحانه – وهو الحكم العدل، قد سخر العبد الصالح للقصاص. وفى هذا صلاح الأبوين، اللذين وعدهما الله تعالى بذرية

خير منه، كما وصفها الله في كتابه ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾.

أما قول موسى: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ فقد كان قولاً مبنيًا على مجرد رؤية المشهد معزولاً عن أسبابه، ومرة أخرى نقول: إن موسى لم يكن من أهل هذه الديار حتى يحكم على نفس بأنها زكية لمجرد الرؤية أو اللقاء العابر، ويحكم على تصرف العبد الصالح، وهو من أهل هذه الديار، بأنه أتى أمرًا نكرًا.

أما القول بأن الله تعالى ـ بسابق علمه ـ قد أعلم العبد الصالح أن الغلام لو طال عمره لضل وأضل، فهو حساب على أمر لم يحدث ولن يحدث.. وكيف يحاسب الله الإنسان على مالم يرتكب؟ الأقرب دينًا وعقلاً: أن الغلام أتى ما يستوجب القصاص، وأنه حتى لقى العبد الصالح كان مستور الأمر، أو بعيدًا عن يد القصاص حتى أوقعه به العبد الصالح امتثالاً لأمر الله تعالى.

والحكمة هنا أيضًا واضحة هى: عدم التسرع في الحكم، ووجوب الإحاطة بجوانبه.

تبقى بعد هذا قصة الجدار. وتختلف في طبيعتها عن الأمرين السابقين: خرق السفينة وهو إتلاف مؤقت وجزئى، وقتل الغلام وهو إنهاء حياة، على أمل أن يبدل الله الأبوين خيرًا منه زكاة وأقرب رحما.. هنا عمل خير دون أجر.. لأفراد مجهولين، يختفى وجودهم في القصة وراء أخلاق أهل القرية السيئة.. الأيتام لايقدرون على الضيافة، ولا يقدرون على إقامة الجدار، ولا يقدرون على الاعتراض على قومهم.. كل الجانب الإيجابى في حياتهم يلخصه القرآن في جملة قصيرة منيرة: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾.

ومرة ثالثة ربط موسى بين سوء أخلاق القرية، وأنهم لايستحقون عملاً صالحًا، وإذا عمل لهم أحد عملاً فليكن على مبدأ (هات وخذ).

هل كان العبد الصالح على علم بأمر الأب الصالح؟ وهل كان مؤتمنًا على سر الكنز وقد حفظه الأب تحت الجدار، وحفظه حتى عن الصغار، لئلا تزل ألسنتهم بكلمة عنه لأهل القرية الظالمة؟.

وما قاله بعض المفسرين عن الإعجاز في إقامة الجدار، وأنه أشار إليه فاستقام، لانقف فيه عند مستوى الإعجاز، فليس عليه دليل من كتاب ولا سنة..

الذى أمامنا أنه.أقام الجدار، وحفظ الكنز للغلامين، فإذا ما كبرا وأرادا تجديد البيت، فلن يجدا من القرية الظالمة عونًا، واعتمدا على الله وعلى أنفسهما ولن يكون معهما أحد عند العثور على الكنز.

ويختم العبد الصالح قوله: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

وحذف التاء من تستطع يدل على سهولة الاقتناع بعد التأويل وفى أول القول كان الفعل: سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا.. وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى في لغتنا العربية.

٤٤ـ وما فعلته عن أمرى

لاتزال قصة موسى والعبد الصالح مصدر إشعاع فكرى، علينا أن نزنه جميعا بميزان الكتاب والسنة المطهرة، دون أن يجمح بنا الخيال بعيدا عن مسالك الشريعة.

بعض العلماء ـ وبخاصة بعض أهل التصوف ـ اتخذوا هذه القصة أصلاً بنو عليه قواعد موهومة.

وأود هنا أن نقرأ معًا قول عالم جليل هو الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير(١٥:١٦ – ١٦) نذكره مختصرا:

فأول ما أسسوه منها أن الخضر لم يكن نبيًا وإنما كان عبدًا صالحًا، وأن العلم الذى أوتيه ليس وحيًا، ولكنه إلهام وأن تصرفه الذى تصرفه في الموجودات أصل لإثبات العلوم الباطنية، وأن الخضر منحه الله البقاء إلى انتهاء مدة الدنيا، ليكون مرجعًا لتلقى العلوم الباطنية، وأنه يظهر لأهل المراتب العليا من الأولياء فيفيدهم من علمه ما هم أهل لتلقيه.

وبنوا على ذلك أن الإلهام ضرب من ضروب الوحى وسموه (الوحى الإلهامى) وأنه يجئ على لسان ملك الإلهام، وقد فصله الشيخ محى الدين بن العربى... في

كتابه (الفتوحات الملكية) وبين الفرق بينه وبين وحى الأنبياء بفروق وعلامات ذكرها في كتابه وجزم بأن هذا الوحى الإلهامى لايكون مخالفاً للشريعة، ولا يخلو ما قاله من غموض ورموز. وقد انتصب علماء الكلام وأصول الفقه لإبطال أن يكون مايسمى بالإلهام حجة. وعرفوه بأنه إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر، وأبطلوا كونه حجة لعدم الثقة بخواطر من ليس معصومًا، ولتفاوت مراتب الكشف عندهم، وقد تعرض لها النسفى في عقائده. وكل ما قاله النسفى في ذلك حق. ولا يقام التشريع على أصول موهومة لا تنضبط.

ثم يقول الشيخ الطاهر بن عاشور بعد هذا:

والأظهر أن الخضر نبي - عليه السلام - وأنه كان موحى إليه بما أوحى، لقوله ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ وأنه قد انقضى خبره بعد تلك الأحوال التى قصت في هذه السورة. وأنه قد لحقه الموت الذى يلحق البشر في أقصى غاية من الأجل يمكن أن تفترض. وأن يحمل مايعزى إليه من بعض المتصوفة الموسومين بالصدق، أنه محوك على نسج الرمز المعتاد لديهم، أو على غشاوة الخيال التى قد تخيم عليهم ويختم تعقيبه بقوله:

فكونوا على حذر ممن يقول: أخبرني الخضر. أهـ.

وكذلك من الناحية اللغوية والبلاغية ترى في القصة وقفات منها: استعمال ثلاث صيغ للفعل (أراد):

- أولاً: في خرق السفينة قال: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾
- ثانيًا: في قتل الغلام قال: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾
- ثالثًا: في إقامة الجدار، قال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾

كيف اختلفت الإضافة في هذه الإرادات الثلاث وهى كلها في قصة واحدة، وفعل واحد؟

يقول الفخر الرازى: إنه لما ذكر العيب أضافه إلى إرادة نفسه.. فقال ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾. والإرادة هنا قصد، وعمل لهدف محدد من قبل. ولذلك لم

يقل العبد الصالح (فَعِبْتها) لمجرد إحداث الخرق. وإنما كان إحداث الخرق إرادة وحركة واعية.

أما القتل فعبر عنه بلفظ الجمع (تبينها على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية) ويمكن أن نضيف إلى هذا أن إرادة القتل لها شقان: الأول تنفيذى لا يخرج عن خرق السفينة ولو كان وحده لنسبه العبد الصالح إلى نفسه، ولكن هناك شقًا ثانيًا هو الأمل المنتظر المرجى من الله تعالى: غلام ﴿ خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ وهذا من فضل الله وكرمه.. واجتماع الأمرين: القتل وهو سلب حياة، والأمل المرجو وهو عوض وفضل، يلائمه فعل الجمع فأردنا.

أما الفعل الثالث (فأراد ربك) فلقد أبى تواضع العبد الصالح وأخلاقه التى أدبه بها ربه إلا أن يمر على إقامة الجدار- وهو جهده - دون أن يذكره. وكأنه يستره حتى من القول والذكر. وأبرز الجانب المستقبلى من إقامة الجدار، وهو أن يبلغ اليتيمان أشدهما ويستخرجا كنزهما، كما أبرز الجانب التاريخى من القصة في قوله: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ والجانب الحاضر منها في قوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾.. ومر مسرعًا على ما صنع، ورد الخير كله إلى الله، والإرادة كلها لله فقال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾.

وتأمل هنا استخدام لفظ (ربك) بالضمير المتصل المؤكد للربوبية والرعاية، ولفظ أشدهما ليعتمدا على نفسيها، ويستخرجا كنزهما فهما، أصحاب الحق فيه.. كل هذا ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ ربك أنت يا موسى وربى، ورب الغلامين اليتيمين، ورب الأب الصالح، ورب الأبوين المؤمنين، ورب المساكين الذين يعملون في البحر ورب كل من التجأ إليه، واحتمى بجانبه، وطرق بابه، واتبع سبيله وسار في نوره. ربنا جميعا ورب العالمين.

ثم قال: ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ولم يقل (هذا).. استعظامًا لما حدث، ورفعًا لمكانته، تمامًا كما تقرأ في أول سورة البقرة: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا

رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ للفظ هذا، مكان، وللفظ (ذلك) مكان، ثم عاد بعد هذا فقرب إليه الأمر بقوله: ﴿ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ بتخفيف كلمة يستطيع التى جاءت في صدر القول.

وفى هذا القول جانب كريم من الإيناس فهو لم يقول له: (ذلك تأويل ما لم تصبر عليه) فذكر الاستطاعة ونفيها.. يدل على بذل الجهد في محاولة الصبر ولقد كان لموسى ما يدعوه إلى الاعتراض، ولكن كان عليه أن يغالب نفسه وأن يلتزم بما شارط عليه العبد الصالح والتجربة ـ حتى للأنبياء ـ مدرسة ترتفع بها درجاتهم عند الله ويستفيد منها المؤمنون ولقد خاطب الله تعالى رسوله الخاتم بعد أن قص عليه قصص الأنبياء في سورة الأنعام:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام:٨٩،٩٠).

وقفة أخرى مع قول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ وكيف ينتقل صلاح الآباء إلى الأبناء هذا أمر نراه في حياتنا اليومية وهو تطبيق عملى لقول الله تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (النساء: ٩-١٠).

وهى من الآباء عدل في المعاملة، وعدل في الميراث لايتركهم عالة يتكففون الناس، ويورثهم مع الستر الاقتصادى حصانة الإيمان والأخلاق والعلم تنير لهم الطريق، وتعصمهم من الانحراف، وتحفزهم إلى العمل، وتقيمهم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يضل عنها إلا هالك. وفى لقائهم الناس، وهم يحملون اسم الأب الصالح، ويحملون معه قبسا من أخلاقه الطيبة، سيجدون قبولا، لايجده نظير لهم، كان أبوه ظالما أوقاسيا أو غاصبا.. وغير بعيد أن يظن الناس في لقائهم أبناء الظالم أو الباغى أنهم على سنن أبيهم.. هذا في الظاهر

أمامنا.. أما في الداخل، فإن العشره الطويلة بين الأب الصالح وأبنائه الصالحين.. أو حتى معايشة ذكراه الطيبة، تترك الأثر الصالح في نفوس الأبناء..

وأكثر من عمل طيب يعمله الأب الصالح ولا يملك من تقبل الجميل أن يرده في حياته، فيحاول هو أو أبناؤه أن يردوه إلى أبناء الأب الصالح بعد رحيله..

وما أعظم إشعاع قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾

وما أعظم إشعاع القرآن الكريم.. ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة: ١٥ –١٦).

٤٥ـ ويسألونك عن ذى القرنين

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

نعود إلى سؤال التحدى الذى تعاون كفار قريش مع اليهود في المدينة على توجيهه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام. وعاد النضر بن الحارث وعقبة بن معيط بالأسئلة الثلاثة: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإن حديثهم عجب، وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه وسلوه عن الروح وما هو.(الفخر الرازى ١١:٨٣)

ومن طبيعة السؤال أن يكون فيه ما يوجه إلى الإجابة وكل الذى جاء عن القصة التى نحن بصددها ((وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها))

والعناصر الواردة في السؤال، أنه رجل، وأنه طواف، وأنه في طوافه قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، بعبارة أخرى: رجل غلب على حياته عنصر الطواف الواسع شرقا وغربا ألا نرى ابتداء أن الإجابة يمكن أن تنطبق على أكثر من رجل في أكثر من عصر.

وجاء النص من أوله يحمل مزيدًا من التحديد، ولكن لايحول دون تعدد الأقوال ويعطى كما سنرى مزيدًا من التفصيل، في أمور ترتبط أكثر ما ترتبط

بأهداف القرآن من الإيمان والعدل والقوة، ووضعها في خدمة الحق، والتعبير العملى عنها بالجهد المشترك وحماية الضعفاء، وتحويل سلبياتهم إلى إيجابيات.. جاءت القصة تؤكد هذا كله، دون أن تقف عند اسم الرجل وعصره ومدى طوافه الشرقى والغربى ووصوله إلى مكان أطلق القرآن عليه اسم ((بين السدين)) ثم ذكر أسماء شعوب تعددت فيها الأقوال ووصفها بالإفساد، وجعل من جهد الرجل الطواف ما يحول دون ذلك.

فليس من منهج القرآن الكريم ذكر جزئيات القصص التى لا ترتبط بمقاصده الكبرى، ولا متابعة، أسلوب التحدى الذى أعان فيه يهود المدينة كفار قريش.. ولنذكر أنهم وهم موحدون في أساس الدين، يقبلون التعاون مع مشركى العرب على الإسلام ثم كانوا ـ من بعد ـ أكبر أعوان قريش في المدينة على حرب الإسلام، والتآمر على قيادته وقاعدته.

ولننظر الآن إلى هذا التعبير ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ ونتساءل ما المقصود منه؟ وهل كان تعبيرا متداولا في الدول التى سبقت الإسلام وعاصرته.. ثم استمر في الدول التى جاءت بعد قيامه؟

التعبير يدل على ثنائية متصلة، أقرب نموذج لها من مشاهد الكون: قرنا الهلال وهما طرفاه. وهو مشاهد في حياة الحيوان، ويرتبط بالقوة والبأس. قرنا الثور والكبش والتيس وبالجمال أيضًا: قرنا الغزال.. ومن هذين المصدرين القوة والجمال انتقل التعبير إلى عالم الإنسان برجاله ونسائه.. فالقرن هى الضفائر أو الجدائل، للكبار والصغار.. كما دخلت القرون في تصميم التيجان: إما ربطًا لها بالقوة، أو الجمال أو المصدر السماوى، كما دخلت في تصميم خوذات المحاربين في كل من العروض الوسطى حيث عاش الفرس والروم والحميريون في اليمن،وفى العروض الشمالية عند رجال البحر من الفايكنج في اسكندناوه، وعرفتها الحضارات القديمة كالحضارة المصرية.

وذهب بعض المفسرين (محمد أسد في رسالة القرآن ص ٤٥١- ٤٥٢ ط. دار الأندلس. جبل طارق ١٩٨٠) إلى أن القرنين هما لقاء الحق والقوة في القصة، أو لقاء جيلين من البشر. والقرن ـ لغة ـ هو الجيل من الناس. ويوضح هذا الحديث الشريف: خير القرون قرنى.

وبهذا المعنى جاءت أكثر الآيات التى ورد فيها اللفظ ﴿ القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ وذلك ﴿ قصة قارون (القصص: ٧٨)

وكأن القول بأن القرنين هما العلم والقوة أو الحق والقوة، يقابل ماجاء ﴿ قصة موسى والخضر من ثنائية سابقة بين الظواهر والحقائق.

ولقد استمر استخدام هذا الرمز بعد الإسلام: ففى مملكة الفونج السنادية الإسلامية ﴿ سودان وادى النيل وكان ازدهارها ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر الميلاديين كان رمز السيطرة والملك غطاء رأس له قرنان (الطاقية أم قرنين).. ولعله كان استيحاء من قصة ذى القرنين. وكان القوم مركز نشاط إسلامى كريم.

ثم يأتى قولا لله تعالى: ﴿ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ والتلاوة هنا إعلام عن طريق الوحى. فليس هذا العلم من عندى، ولا هو من كسبى وإنما هو مما أوحى إلى ربى، وهذا الذى سأتلوه عليكم هو بعض خبر ذى القرنين، وليس استقصاء لتاريخه. هذا ما تفيدنا كلمة منه، وكلمة (ذكرا) تفيد الخبر، كما تفيد العبرة ﴿ ذات الوقت..

وقد حاول بعض المفسرين نقل القصة من التعميم إلى التخصيص وتحديد شخصية ذى القرنين من الناحية التاريخية، والعصر الذى عاش فيه والمدى الذى وصل إليه شرقًا وغربًا. وموقع السر الذى أنشأه ولكن ألا يجدر بنا، وقد عرضنا صورة شاملة عن (القرنين) ﴿ الحياة والتاريخ، أن نعرض استخدام القرنين ﴿ الفكر اليهودى، وهم الذين اختاروا الأسئلة الثلاثة لكفار قريش، ليتحدوا بها المصطفى عليه الصلاة والسلام.

أشار إلى ذلك مولانا عبد المجيد الداريابادى ﴿ ترجمته وشرحه لمعانى القرآن الكريم (١:٢٨٥ ط. شركة التاج كراتشى/ باكستان مارس ١٩٧١).

جاء القرن ﴿ العهد القديم رمزا للقوة والعظمة. وفى الاصطلاح العبرى تقول: رُفِعَ قرن قومٍ أو فرد إذا قصدت النصر أو الكبرياء وكسر القرن أو عُضِبَ إذا

أردت الهزيمة. حتى موسى ـ عليه السلام ـ يصورونه وله قرنان. ومن المتواتر عندهم أن موسى عندما رجع من ميقات ربه يحمل الألواح نبت له قرنان في جبهته، أو هما رمزان لأشعة نورانية تضيء من رأسه.

وفى قاموس الكتاب المقدس (ص ٧٢٧ ط الانجيلية –بيروت ١٩٦٤) تحديد لهذه المواقع في أسفار وأعداد العهد القديم وحتى في التماثيل التى تصوروها لموسى ـ عليه السلام ـ وأهمها ما نحته مايكل أنجلو (أعظم نحاتى عصر النهضة ١٤٧٥م ـ ١٥٦٤م) تبدو كل مظاهر القوة الجسمية، والعزم والتصميم، كما تبدو القرون النابتة في رأسه.

ومن هنا يبدو الربط بين القرنين والفكر اليهودى، والتحدى الذى أعانوا به كفار قريش على الإسلام.

إلا أن القرآن قيد الشخصية بصفات سنراها فيما نستقبل من آيات، ولكنه في هذا المطلع، ذكر فضل الله عليه، ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والأرض هنا لا تفهم على إطلاقها، وإنما الأرض التى كان يحيا فيها، أو يمتد إليها سلطانه، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ أى من كل شيء يحتاج إليه في أمر دينه ودنياه، وما يقوم به من عون لقومه أو لغيرهم، أى: أن أسباب الصلاح والإصلاح كانت متيسرة بين يديه، وفى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ ما يدل على تيسر الوسائل يقول الفخر الرازى: (١١: ١٦٦) معناه أنه تعالى لما أعطاه من كل شيء سببه فإذا، أراد شيئا، أتبع سببا يوصله إليه ويقربه منه.

والأصل في السبب ـ لغة ـ عبارة عن الحبل ثم استعير لكل ما يتوصل به إلى المقصود، وهو يتناول العلم والقدرة والآلة.

وفى هذه الآيات تتمثل مصادر القوة التى يمكن أن يستقيم بها أمر حاكم:

- **أولاً**: الأرض التي يتحرك منها وهي القاعدة التى لاغنى عنها لأى حاكم. ولقد كانت القضية الكبرى بعد الإيمان في حياة الرسول ﷺ والذين معه، هى البحث عن الأرض الآمنة التى يتحركون منها،هذا بعد أن رفض القرشيون الإسلام وحاربوه إلا قليلا منهم.. فكان البحث عن مهاجر جديد، وكان الاستقرار في المدينة، ثم الانطلاق منها.

- **ثانيًا**: توفر الموارد البشرية والمادية.. ولم يحدث هذا في مكة، وحدث في المدينة، فكان فيها المهاجرون والأنصار قوة بشرية مؤمنة، وكانت موارد المدينة من زراعة وتجارة وبعض الصناعة، في خدمة الإسلام، وهذه هى الأسباب.
- **ثالثًا**: القدرة على تحريك هذه الموارد، أو هذه الأسباب، وهى سياسة المدينة الداخلية والخارجية، والتى نقرؤها في القصة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴾

أرأيت أن الحديث لم يكن عن الماضى بقدر ما هو رسم للمستقبل وتخطيط له.

٤٦ـ ذو القرنين والتاريخ والتفسير

ذو القرنين من الشخصيات التى تناولها التاريخ والتفسير ولا تزال.

لم يذكر القرآن الاسم صريحًا مع أن مدخل القصة هو قول الله تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ﴾.

ونستطيع وهذا ما سننتهى إليه أن نقف عند حدود النص القرآنى وما فيه من العبرة طيل الوقوف عند المواطن التى وجهنا إليها، ونمر مسرعين بالمواطن التى أجملها ثم نضم أطراف الحديث، ونحاول فهمها في ضوء الآيات الخاتمة للقصة في السورة.

ونستطيع أيضا أن نطوف بكتب التفسير والتاريخ لنرى ما جاء فيها عن ذى القرنين وكيف حاولت تحديد الشخصية أو على الأقل ترجيحها، والإطار العام الذى يجمع هذه الأقوال، والمنهج الذى سنتبعه هو الدراسة المقارنة والتحليلية.

ولنذكر أولا: أن التحدى كان للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأن الذين تحدوه هم قريش، وأن الذين أعدوا الأسئلة هم أحبار اليهود في المدينة.

ومن المنطقى أن تكون الأسئلة متصلة من قريب أو بعيد بالتاريخ اليهودى، وهو مادة حياتهم.. فما أهم الدول ومناطق العمران الحضارى التى كان لهم بها صلة؟.